بنده

– خليل البرقاوي / عفي عنه.

هذا وقبيل وفاة خليل آغا بمدة الغت الحكومة العثمانية الاقطاع واوجدت قائمقامية في طولكرم وسمت القضاء باسم بني صعب ويشمل بني صعب ووادي الشعير والشعراويات وبقيت التسمية زمن الانتداب ولكن اخيرا بقي الاسم قضاء طولكرم بدلا من بني صعب،

أول قائمقام عينته الحكومة العثمانية هو صالح الركابي وقام ببناء دار للحكومه (السرايه) سنة ١٣١١ هـ وأصلح جامع المغربي

ومن الاشخاص الذين عاصروا شيوخ البرقاوي وكانوا من اقدم سكان طولكرم او ذكروا في الوثائق الخطية القديمة التي وجدت عند ال الطياح في طولكرم فخر المشايخ يوسف الدسوقي وفخر المشايخ عيسى الماضي والشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي والسيد محمد العطعوط ومصطفى الحسن التركماني والشيخ محمد بن ابراهيم ومصطفى بن عثمان بدران وطه زرقية وموسى بن سليمان الرماحة واسماعيل الجلاد ومحمد بن سعادة التايه وناصر الفيراني ويونس بن مرعي وصالح الحسن والشيخ عبد الحليم من عنبتا وعثمان السبوبة من عنبتا والشيخ ياسين التفال من ذنابة وياسين ابن عبد الوهاب من ذنابة والحاج محمد العامر من بيت ليد وعلي العودة من برقة وال سمور من السمرة من قبيلة برقة من عتبة من مضر وال دبدوب من سفارين ودعباس وال حبايب، هذا ومن العائلات القديمة المعاصرة لشيوخ البرقاوي في طولكرم والقضاء ال سواد وال الطياح وال الجلاد وال اليحيى واليونس وال بدران وال العتيلي من عتيل وهم من قبيلة برقة واقرباء لال البرقاوي في انتسابهم لال بيت الرسول الكريم محمد (ص) وقزمار وال عودة والعموري وسلمان والحويلية نسبة الى عشيرة حوال اليمنية ولبلب وهم اقدم سكان طولكرم على الاطلاق ويرجع نسبهم الى قبيلة همدان اليمنية وال التفال من ذنابة ويرجع

نسبهم الى الصحابي عبد الرحمن بن عوف، وال الكرمي الذين اتوا مؤخرا من مصر وهم يمانيون. وسنعود الى التفصيل عن بعض الاشخاص او العائلات فيما بعد، كذلك سنذكر بعض الاشخاص العلماء من طولكرم او قرى القضاء او الاقطاع الخاص بامراء البرقاوي كبرقة ورامين وشويكة وسفارين وكفر اللبد وجت ومنها الشيخ سعيد الجتي امام الجامع القديم في طولكرم مؤخرا .

اما العائلات التي جاءت الى طولكرم بعد عهد الاقطاع من القرى المجاورة ومن نابلس فهي كما يلي: وقد ساعدت في اعمار المدينة وهي ال الحاج ابراهيم من الطيبة ويقولون انهم اقارب الى عشيرة المقداد بن الاسود اي ابن عمرو البهراوي من بهراء وسنذكر عن سيرة هذا الصحابي الجليل فيما بعد. وال الفياض وال قعدان وهما من نسل الحارث من قبيلة برقة من عتيبة من مضر وال الجيوسي من كور وال الشيخ عبد الكريم من الراس وذياب ودبدوب من سفارين وال سمارة من ذنابة من قبيلة برقة من عتيبة من مضر وقد ابتنوا جامعا يدعى بالجامع الجديد وسط طولكرم. وال الناطور من قلنسوة وال الطنيب من ارتاح وال حنون من سفارين وال عواد وال الناشف وال ابي هنطش وال محمد العمر من سفارين وال فريج من شويكة وال بدران من دير الغصون

اما العائلات التي اتت من نابلس فهي: ال القيسي وال بريك وهم من ال بيت النبي محمد (ص) وال الددو والشاهد والقاروط وعاشور والنعنيش والقطب اما ال البعباع فقد جاؤوا من طرابلس الغرب (في ليبيا) وال حوسو من نابلس والبسطامي ثم ال ابو شريفة وال شريم وابو شنب وال البشناق وال ابو صلاح وال البيطار وال شومان وال ابو زنط من نابلس. وأبو طاقة وال طربية وال المدني وال الهمشري وال الجمل وال شرعب وال محسن الظاهر وال زيدان وال الصويص من طولكرم وال قريب وبدير والقطو ويعقوب والعوض والصباح. وسماحه والبركه وآل ناصيف وآل الكرمي وآل أبي كشك وآل صفيره من غزه وآل الحطاب وآل شديد وآل البشناق وآل فريج

والقدح والصوالحه وآل يونس والحاج محمد أما آل الحنون فجاء جدهم من خربة أم الصوان

وصف طولكرم

وصف طولكرم مؤلفا "ولاية بيروت" في زيارتهما الى طولكرم ابان الحرب العالمية الاولى بقولهما: ان قصبة طولكرم الصغيرة الممتدة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي تشبه تماما مصيفا لطيفا. فان سهولا تمتد ساعات طويلة قد انبسطت امام القصبة التي بنيت بعناية واهتمام من الاحجار البيضاء وسقفت بالآجر (القرميد) الاحمر. وقد قالا ان عمر القصبة يبلغ الثلاثين من الاعوام.

اما الطريق الموصل الى محطة السكة الحديدية القائمة على بعد عشر دقائق (اي مشي عشر دقائق) في الجهة الغربية منها فانه يلفت الانظار تماما بنظافته وحسنه. ومن المناظر الملفتة للنظر في المدينة "دار الحكومة" القائمة في منتهى الطريق الى الشمال الشرقي من القصبة والدور اللطيفة المنفردة القائمة في الجانب الاخر - اي الشرقي - من الطريق الذي لا يتجاوز طوله الخمس دقائق سيرا على الاقدام، وهو شريان الحياة النابض في طولكرم.

وتقع كافة حوانيت طولكرم ومقاهيها وباحاتها الصغيرة واسواقها التي تقام صباح مساء في النقطة المتوسطة من هذه الطريق وفي منتهى الطريق من الجهة الاخرى للقصبة ينهض جامع الشيخ علي المغربي وهو الحد الثاني في طولكرم وتعلو مئذنة الجامع البيضاء لفظة الجلالة باحرف معدنية، وكأنها باب صمداني يدعو اليه بصورة دائمة كافة سكان القصبة وعددهم ثلاثة الاف شخص.

ولقد استُنبت شيء من الاشجار والنباتات الجديدة في محلات متفرقة من هذه البلدة الصغيرة التي لا تفارقها اللطافة والاعتدال. ويرى الناظر الى

اهالي طولكرم ما بين صغير وكبير يذهبون ويجيئون مساء كل يوم على الطريق الممتد بانحناء قليل الى محطة السكة الحديدية.

ان طولكرم ذات طالع حسن فقد كان لها نصيب في الحصول على عدة ايد عاملة اوجدت فيها محركا بِخاريا يخرج دائما اليها ماء عذبا غَدَقا ومُدَّت فيها انابيب معدنية في انحاء مختلفة من القصبة بالاضافة الى البئر القديمة الذي ساهم في حفرها جميل العابد احد الصالحين من دمشق ايام اقطاع ال البرقاوي.

وفي الحرب العالمية الاولى ابان الهجوم البريطاني الكاسح على فلسطين كانت طولكرم مقرا لجواد باشا قائد الجيش العثماني الثامن. وكان هذا الجيش احد الجيوش العثمانية الثلاثة التي عهد اليها بالدفاع عن فلسطين وكانت جبهة الجيش الثامن هذا تمتد من البحر - قرب قرية الحرم - حرم سيدنا علي، منتهية بقرية فرخة مارة بقرى بيار عدس - جنوب قلقيلية - رافات - فرخة على مسيرة طولها نحو ٣٢ كم.

ولما شرع البريطانيون بهجومهم الكبير على السهل الساحلي احتلوا طولكرم في يوم ٢٠ / ٩ / ١٩١٨م وبقوا فيها الى ١٥ / ٥ / ١٩٤٨م.

وتقع طولكرم على الخط الحديدي الذي يصل حيفا بسيناء.

ومحطة طولكرم الحديدية تقع على الكيلومتر ٣٤٥.٥ بالنسبة لبعدها عن محطة القنطرة في سيناء. وتبعد طولكرم عن المدن الاتية كما يلي بالكيلومترات:

عن رام الله - ٧٧ كم

عن اربد - ١٥٩ كم

عن قلقيلية - ٣١ كم

عن الحمة - ١٥٤ كم

عن اريحا - ١٠٠ كم

(١) عين جواد باشا لقيادة هذا الجيش على أثر اعفاء قائده السابق الجنرال كريس فون كريستاين

عن جنين – ٥٣ كم
عن عمان – ١٤٩ كم
عن السلط – ١٠٥ كم
عن البحر الميت – ١١٤ كم
عن الخليل – ١٣٧ كم
عن الحدود العراقية – ٤٧١ كم
عن الحدود السورية – ١٩٣ كم
عن محطة الخضيرة – ١٧.٥ كم

وبلغت مساحة طولكرم في ١٩٤٥/٤/١ – ١٦٧٢ دونما، منها ٩٢ دونما للطرق والوديان والسكك الحديدية ثم اتسعت فيما بعد فبلغت مساحتها ١٩٦٦ دونما. كما بلغت مساحة اراضيها في التاريخ المذكور ٣٢٦١٠ دونما منها ٩٦٤ للطرق والوديان والسكك وغرس من اراضيها بالحمضيات نحو ٢٣٩٩ دونما.

زار شاعر القطرين خليل بك مطران طولكرم سنة ١٩٢٥سيما لرؤية اخوانه النصارى كآل سابا وآل حبيب وآل الدرزي، واحتفى به اهلها وشبابها، كما زار المدرسة الفاضلية الثانوية واستقبله مديرها واساتذتها وفي طليعتهم الشيخ توفيق بن مصطفى البرقاوي استاذ الدين واللغة العربية سعيد افندي بشناق مدير المدرسة ومحمد العارف الناشف استاذ الدروس الصحية، ومحمود اليونس استاذ التاريخ والجغرافيا وعازر افندي استاذ الرياضة البدنية وغيرهم، وقال مطران في هذه المناسبة قصيدة جاء فيها:

إنـا وجدنا وقد طـال المطاف بنا / في طولكـرم رجال الطول والكرم
حـياهم اللـه مـا احـلى شمـائلهم / وما اجلّ الذي فيـهم من الشيم
لا زالـت الـقدرة الحـسناء قدرتـهم / لقومـهم بثبات الرأي والهـمـم
هل مسقط الرأس مغنى اذ نكون وما / منا امرؤ في ثراه راسخ القدم؟
حـق البـلاد علينـا كل تكرمة / في الطائرات مـن الاحـداث والازم

بالفعل نكرمـها لا بالـقول نجـملها / وهل غنـاء عن الافـعال بالكـلم
نـفديك بـالمال والارواح يا وطنـا / شـاعت مـآثره الغـرّاء في الامـم

عودة الى الحياة البشرية والسكان

اسلفنا ان طولكرم زمن الاقطاع وزمن العثمانيين بقيت قرية صغيرة تابعة لمركز القضاء في شوفة آنذاك ولم يكن عدد سكانها عام ١٩٠٠م يتجاوز الثلاثمائة نسمة، وبعد الحرب العالمية الاولى اخذت في الاتساع والنمو لاسباب عدة، منها نزوح جماعات من القرى المجاورة كعنبتا والطيبة وسفارين وشويكة وعتيل وغيرها اليها. كذلك في عهد الانتداب البريطاني اخذت تتقدم بسرعة ويزداد عدد سكانها وذلك بسبب استغلال السهل الساحلي زراعيا وفنيا ادى الى جعلها مركزا تجاريا وعمت حركتها العمرانية بازدياد السكان زيادة كبيرة وصل في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٦١م الى ٢٠٦٨٨ نسمة، سيما بعد نزوح جماعات من سكان نابلس بالاضافة الى القرى المجاورة اليها واستقرارهم فيها.

وقبلا وفي سنة ١٩٣٠م وبعدها الى سنة ١٩٤٥م قام بعض الاغنياء من نابلس كالسيحاني والنابلسي وغيرهم من القرى بانشاء البيارات من البرتقال في سهول طولكرم

لكن بعد سنة ١٩٤٨م كانت اكبر الهجرات اليها وهي هجرة اللاجئين الفلسطينيين، إذ فتحت المدينة ابوابها لاستقبال ١٣٥٠ عائلة لاجئة من عدة قرى ومدن فلسطينية، واصبحت والحالة هذه بحق تدعى بالمدينة، وتوسعت وازداد سكانها بالرغم من ضياع ارضها في السهل الساحلي الممتد امامها. ففي عام ١٩١٤م كان عدد سكانها ١٩٨٤ نسمة ثم ازداد الى ٢٠٠٠ نسمة فـ ٣٠٠٠ نسمة فيما بعدوكانوا يقيمون في ٣٠٠ بيت. وفي عام ١٩٢٢ بلغ عدد سكانها ٣٣٤٩ نسمة وفي عام

١٩٣١ بلغ عدد السكان فيها ٤٨٢٧ نسمة وفي عام ١٩٤٥ كان عدد سكانها نحو ٨٠٩٠ نسمة، بما فيها خربة الجرّاد وخربة الدعابسه

اجري اول تعداد رسمي للنفوس والمساكن في طولكرم عام ١٩٦١ إذ بلغ عدد سكان المدينة آنذاك ٢٠٦٨٨ نسمة تنتظمهم ٣٥٣٤ أسرة، وبلغ عدد الذكور في ذلك الاحصاء ١٠٦٢٨ نسمة والاناث ١٠٠٦٠ نسمة وكانت نسبة الذكور الى الاناث (١٠٥.٧ : ١٠٠) اي ان كل ١٠٠ انثى يقابلها ١٠٥ من الرجال، وهذه النسبة هي نفس النسبة العالمية في اغلب المجتمعات. وهؤلاء السكان يعيشون على رقعة من الارض مساحتها ١٥ كيلومترا مربعا طولها من الشمال الى الجنوب خمسة كيلومترات ومن الشرق الى الغرب اكثر من ثلاثة كيلومترات وقد التصقت بقرية ذنابة الى ناحية الشرق واصبح لا يفصلها عنها سوى شارع معبد. ووصلت الى اطراف قرية ارتاح في الجنوب. كذلك اتصلت بقرية شويكة في الشمال. والسبب في اتساع هذه المدينة هو ان تسعة اعشار مبانيها البالغ مجموعها ٣١٣٧ مبنى ذات دور واحد فقط والعُشر الباقي ذو دورين، اما المباني التي تزيد عن دورين فلا يزيد عددها عن ١٤ مبنى.

وعودة الى الاحصاء المذكور آنفا، نقول انه يتبين منه ان مجموع السكان الذين تقل اعمارهم عن ١٥ سنة من ذكور واناث هو ٨٦٨٤ نسمة منهم ٤٥٣١ ذكور و ٤١٥٣ إناث، كما تبين ان مجموع السكان الذين تزيد اعمارهم عن ١٥ سنة هو ١٢٠٠٦ منهم ٦١٠١ ذكور و ٥٩٠٥ إناث، اي ان نسبة السكان دون الـ ١٥ سنة الى بقية السكان الذين تزيد اعمارهم عن ١٥ سنة كانت ٧٢٪ وهي نسبة كبيرة وتظهر اهميتها اذا عرفنا ان هؤلاء السكان دون الـ ١٥ سنة يشكلون في الدرجة الاولى افواها آكلة ثم انهم يحتاجوت لتجهيزات واسعة من اجل تعلمهم وانشاء المدارس لهم، وقد ظل عدد السكان في تزايد مستمر

حتى كان قبيل عام ١٩٦٧ يتراوح بين ٢٢ - ٢٥ ألف نسمة منهم نحو ٨٠٠٠ نسمة في مخيم طولكرم للاجئين. لكن عندما وقعت حرب حزيران ١٩٦٧ هاجر عدد كبير من سكان المدينة الى الضفة الشرقية وغيرها من الدول العربية ويقدر عدد الذين هاجروا نحو ٩٠٠٠ نسمة، ثم عاد عدد السكان لينمو بالتدريج ويزداد ثانية بسبب عودة قسم من المهاجرين الذين غادروا إبان الحرب عن طريق جمع الشمل وبسبب قدوم جماعات من غزة ومدن الضفة الغربية الاخرى، وذلك لقربها من مركز العمل في اسرائيل. وهذه احصائية تقديرية لسكان طولكرم وبعض قراها في الفترة المذكورة:

طولكرم - ٢٦٠٠٠ نسمة / مخيم طولكرم - ٩٠٠٠ نسمة / مخيم نور شمس - ٣٢٠٠ نسمة / قلقيلية - ١٦٠٠٠ نسمة / سلفيت - ٨٠٠٠ نسمة / عنبتا - ٥٠٠٠ نسمة / عزون - ٤٠٠٠ نسمة / عتيل - ٤٠٠٠ نسمة / اكتابا - ٩٥٠ نسمة / رامين - ١٠٠٠ نسمة / بيت ليد - ٣٠٠٠ نسمة / بلعا - ٢٥٠٠ نسمة / دير الغصون - ٣٥٠٠ نسمة / قفين - ٣٠٠٠ نسمة / زيتا - ٢٠٠٠ نسمة / علار - ٢٨٠٠ نسمة / أما شوفة مركز القضاء القديم فيبلغ تعداد نفوسها نحو ٨٩٠ نسمة، كل هذا بعد سنة ١٩٦٧، ثم ارتفع عدد نفوسها عام ١٩٨٧ الى نحو الف نسمة. اما بالنسبة لعدد سكان طولكرم فيمكننا القول انه ارتفع بعد سنة ١٩٨٧ الى ٣٠ ألف نسمة بما فيهم مخيم طولكرم.

وعلم من مصدر موثوق (احصائيات متأخرة) ان عدد سكان المدينة بلغ بعد سنة ١٩٩٠ نحو ٤٢ ألف نسمة.

(١) عن احصاء متأخر